السياسة التعليمية الفرنسية في الجنوب الشرقي للجزائر 1882-1914

French educational policy in the southeast of Algeria 1882-1914

بن حادة مصطفى ♦

جامعة ابن خلدون-تيارت benhadda.ram@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/07/18	تاريخ القبول: 2023/03/19	تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص باللغة العربية:

بعدما بسطت فرنسا سيطرتها على كامل أنحاء الجزائر، طبقت سياسة استعمارية مست مختلف المجالات، حيث كان للسياسة التربوية والتعليمية الأثر الكبير على المجتمع الجزائري خاصة في جنوبه الكبير منه الجنوب الشرقي من خلال مجموعة من القرارات والمراسيم القانونية. شهدت منطقة الجنوب الشرقي من الصحراء الجزائرية منظومة تعليمية استعمارية متمثلة في مختلف أطوار التعليم الابتدائي، المتوسط والثانوي خاصة في نواحي ورقلة، وادي سوف والأغواط. هذه المناطق شهدت إنتشار تعليم الثقافة الفرنسية ومن وراءها القضاء على مقومات وتعليم الدين الإسلامي من خلال نشاط مبشرين مختصين استعانت بهم فرنسا الاستعمارية للقضاء نهائيا على مكونات المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الصحراء الجزائرية؛ الجنوب الشرقي للجزائر؛ الاستعمار؛ ثقافة فرنسية؛ برامج تعليمية فرنسية.

Abstract:

After France extended its control over all parts of Algeria, it implemented a colonial policy that affected various fields, as the educational policy had a great impact on Algerian society, especially in its great south and southeast, through a set of decisions and legal decrees. The southeastern region of the Algerian Sahara witnessed a colonial educational system represented in the various stages of primary, intermediate and secondary education, especially in the areas of Ouargla, Wadi Souf and Laghouat. These areas witnessed the spread of French culture education and behind it the elimination of the elements and teaching of the Islamic religion

♦ المؤلف المرسل

through the activity of specialized missionaries who were hired by colonial France to completely eliminate the components of Algerian society.
Keywords: Algerian Sahara; southeast of Algeria; colonialism; French culture; French educational programs.

مقدمة:

إنّ هدف فرنسا من إحتلال الجزائر، كان التوسّع في جميع أنحاءها، وتطبيق سياسة متعدّدة الجانب خاصّة التربويّة والتعليميّة منها، حيث كان الجنوب الجزائري مسرحا لتجارب منظومة من وراءها تطبيق سياسة استعمارية لغرض ربط الجزائر بفرنسا. إنّ التعليم في الصّحراء لا يقلّ أهميّة عن الشمال، أرادت فرنسا أن تغزو منطقة الجنوب الجزائري فكرياً بعدما غزته عسكرياً، حيث اتّخذ الفرنسيون التّعليم وسيلة لتحقيق أغراضهم والمتمثّلة في القضاء على المقوّمات الحضاريّة للجزائريين، وبذلك تسهل عليهم السّيطرة على كامل مساحة الجزائر والاستيلاء على خيراتها.

منذ الاحتلال، عمدت فرنسا على ممارسة سياسة التجهيل والعمل على تشويه الشخصيّة الجزائريّة، حيث عرقلت تعليم اللّغة العربيّة، كما قامت بشنّ حرب ضد العلم والتّعليم، وحلّ التّاريخ الفرنسي محلّ الجزائري.

إنّ سياسة التجهيل والتنصير الّتي اعتمدها الاستعمار الفرنسي لم تكتف بالشمال فقط بل امتدّت إلى جنوب البلاد، الّتي كانت الهدف منها إخضاعها بكلّ مقوّماتها، حيث كانت بعض المناطق في الجنوب عرضة لتطبيق سياسة تعليميّة مثل ما حدث في الأغواط وواد سوف وورقلة.

استعملت الإدارة الاستعماريّة كلّ ما تملك لتطبيق سياسة تعليميّة حتّى تتمكّن من كسب عقول الجزائريين وبالتّالي القضاء على هويتهم العربيّة الإسلاميّة، وعليه نطرح التساؤل التالي:

- ما دور المنظومة التعليمية في توطيد الإستعمار؟
- وما هدف فرنسا من تطبيق سياسة تعليمية في الصحراء عامة والجنوب الشرقي خاصة؟

1- أهمية الصحراء وصورة التعليم بها بعد الاحتلال حتى 1870.

بعد الاحتلال، طبقت فرنسا سياسة تعليم في الجزائر عامّة والتي اعتبرت عاملاً من عوامل التجهيل، لأنّها إحدى الوسائل الاستعمارية التي يتخذها الاحتلال لتنفيذ أغراضه وتحقيق أهدافه، من حيث فرض ثقافة فرنسية والقضاء على الهوية الوطنية. إن المدرسة

الفرنسية جاءت بعدما أسست فرنسا بناءاً استعمارياً يتمثل في الجيش والمدرسة[1]، هذه الأخيرة كانت أكثر نجاعة وفعالية لتوطيد كل أشكال السياسة الاستعمارية بعد الاحتلال العسكري أرادت فرنسا أن تغزو الشعب الجزائري فكريا، وذلك عن طريق فرض سياسة تعليمية محكمة تخدم الاستعمار وتواكب سياسة الاستيطان، مثلما قام به الاستعمار في شمال الجزائر، فعله في القسم الجنوبي أي الصحراء الكبرى، حيث كان المعمرون الأوروبيون أشد المعارضين لتعليم الجزائريين.

1-1 المظاهر الطبيعيّة للصّحراء:

الجزائر وبمساحتها الشاسعة التي تبلغ 2.381.741 كم^2، أصبحت محل أطماع فرنسا بعد احتلالها لشمال البلاد. في هذه المساحة نجد حوالي 90% تمثله صحراءنا الكبيرة بمساحة قدرت بـ 1.987.600 كم (2) أي قاربت المليونين كم^2، تمتد من الأطلس الصحراوي شمالاً إلى الحدود المالية والنيجرية جنوبا، ومن الحدود التونسية الليبية شرقا إلى حدود الصحراء الغربية وموريتانيا غرباً.

يتميز الجنوب الجزائري الكبير بمظاهر تضاريسية ومناخ يتناسب مع الموقع الجغرافي تختلف عنها في الشمال، حيث ما يميزها وجود العرق الشرقي الكبير وكذلك الغربي، ووجود عروق أخرى كعرق الشاش... وهي عبارة عن مساحات واسعة من الصحراء. تمثل إضافة إلى الرق وهي صحراء حصوية مثل رق تانزروفت، وكلّها تمثل سهول رملية. كما يميز الصحراء وجود هضبات مثل هضبة الحمادة في شمال الصحراء، وهضبة تادمايت في وسطها كما نجد مرتفعات قديمة التكوين في الطاسيلي والهقار التي بها أعلى قمة بالجزائر تاهات التي تبلغ 2981م^3.

أمّا المظهر الثاني يتمثل في المناخ، حيث أنّ له علاقة تناسبية مع الموقع الجغرافي، من مميزاته أنّه مناخ قاريّ جاف، فالمناخ الصحراوي يتسم بالحرارة الكبيرة طول السنة. تبلغ درجة حرارة الرمال في الصيف 70° والكل يتجمد في الشتاء[4]، ونجدها تختلف بين الليل والنهار. من جهة أخرى فإن الأمطار في الصحراء تكون فجائية وتتسبب في الكثير من الأحيان في كوارث طبيعية، هذه الأمطار تمرّ بفترتين أوّلها تبدأ في شهر

1- عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية، ط1، 1999، ص 17.

2- احميدة عميراوي، سليم زاوية، محمد السعيد ناصري، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1816- 1844، ص10.

3- جيلالي صاري، دور البيئة في الجزائر، ط1، الجزائر، 1983، ص ص 18- 20.

4- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، منشورات ANEP، ط10، الجزائر، ص 209.

نوفمبر إلى جانفي بهبوب رياح شمالية غربية، أما الثانية فهي من شهر ماي إلى سبتمبر مع هبوب رياح موسمية على الهواش الجنوبية[5]. لقد لعب هذا المناخ دورا فعالا في ترسيخ السياسة الاستعمارية الفرنسية في الصحراء خلال الأحداث التاريخية كما عرفه الشمال[6].

2-1 التوسّع الفرنسي والاهتمام بالصحراء:

كانت السياسة الفرنسية في الصحراء تهدف إلى عزل الجنوب وفصله عن شمال الجزائر، وإخضاعها لنظام إداري عسكري، إلى جانب ذلك كان اهتمام علمي كبير في المنطقة. لقد سخرت فرنسا علماء كانوا يعرفون الصحراء جيداً مثل العلامة الموريتاني أحمد المصطفى ولد طوير الجنة[7].

شهدت الصحراء الجزائريّة مثل بقية المناطق في الجزائر توسعا استعماريا. يعتبر القسم الجنوبي بمساحته الشاسعة من أهم المناطق الجنوبية التي كانت فرنسا تطمع لفرض سياسة تكون نتيجتها فصلها عن بقية الأقاليم الأخرى. تتميز الصحراء الجزائرية بخصائص ومميزات اجتماعية، حيث أنّ طبائع السكان تختلف عن مثلها في الشمال الجزائري، وأهم ما يميزهم هو المجتمع القبلي[8].

2- فرنسا والتعليم في الصحراء الجزائرية.

منذ أن وطأت فرنسا أرض الجزائر بدأت تتسوع جميع أرجاءها. بعد السيطرة على شمال البلاد خاصة بعد 1836 اتجه نظرها إلى الصحراء، حيث كان الجنوب الجزائري عرضة لاحتلال شامل، وبالتالي تطبيق سياسية إستعمارية شملت جميع المجالات خاصة منها التربوية والتعليمية. قد جربت هذه السياسة في جزء من الصحراء الكبيرة، حيث كان الجنوب الشرقي مسرحا لتجارب سياسية تعليمية من 1882 حتى 1914 خاصة في مناطق متعددة منه مثل ورقلة واد سوف والأغواط.

5- إبراهيم مباسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي، ماجستير في التاريخ المعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987/1986، ص 13.

6- احميدة عميراوي وآخرون، المرجع السابق، ص 13.

7- توفي هذا الصالح سنة 1849 وترك آثارا قيّمة، رحلة الشي والمنة، مخطوط بالمعهد الفصل الرابع الموريتاني للبحث العلمي، ص 168.

8- احميدة عميراوي، سليم الزاوية، محمد السعيد ناصري، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1816- 1844، ص9.

أرادت فرنسا إخضاع الجزائر عامة وجنوبها الشرقي خاصة من خلال تطبيق سياسة التجهيل والتنصير، وذلك بوضع منهاج تعليمي يهدف إلى القضاء على الشخصية الوطنية والهوية العربية الإسلامية.

حاول الإستعمار السيطرة على الصحراء حتى يتمكن من إخضاع كل الأراضي الجزائرية التي كانت لها السيادة. لقد طبقت فرنسا الإستعمارية هذه السياسة في منطقة الجنوب الشرقي التي كانت نموذج لباقي المناطق في الصحراء الجزائرية.

3- السّياسة التعليميّة في الجنوب الشرقي للجزائر.

لم يكن لفرنسا سياسة تعليميّة أو نموذج أو تجربة هادفة، بل اعتمدت على مجموعة من التّجارب التّعليمية المتتالية كالتّعليم المشترك، المدارس العربيّة الفرنسيّة ومدارس البلديات المختلطة... والّتي أعطت نتائج هزيلة وذلك بسبب انشغال سلطات الاحتلال بعملية إخضاع مختلف نواحي البلاد لسيطرتها والقضاء عليها وعلى الثورات الشعبيّة الّتي كانت تعرفها[9]. احتمل الإستعمار على ظاهرة التنصير وهو أخطر الوسائل التي استعملها الاستعمار الفرنسي لطمس الشخصية الجزائرية. لم تكن الصحراء الجزائرية بمنأى عن قرارات الإدارة، حيث أن المدارس العربية الفرنسية بالمناطق العسكرية اقتصرت على أبناء الفرنسيين. إن التعلم الابتدائي في المنطقة الجنوبية من الجزائر خضع لقوانين حيث طبقت فيه مراسيم استعمارية مثل منطقة الشمال، وهو يتبع مبدئيا نظام التعلم في فرنسا. كان لها خاضع لقوانين جوان 1881 التي تتعلق بمجانية التعليم الابتدائي.[10]

ابتداء من 1883 نضجت هذه التجارب التعليميّة وتبلورت في سياسة واضحة المعالم والأهداف وذلك بإصدار قانون 13 فبراير 1883م* في عهد وزير التربية والتعليم جول فيري "Jules Ferry" والّتي تنصّ على مجانية التّعليم وتعميمه بين الجزائريين[11]،

9- رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، 2008، ص 131.

10- أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص362.

*- القانون ما هو في الأصل إلا تطبيق لقانون 16 جوان 1881م و28 مارس 1882م المقننة للتعليم في فرنسا على الجزائر لكن مع إدخال بعض التعديلات عليها.

11- آسيا بلحسن رحوي، وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي دراسات نقديّة وتربويّة، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، جامعة مولود معمري- تيزي وزو، ع07، ديسمبر 2011، ص 66.

وقانون 1882 إجبارية هذا التعلم على كل مستوطنين في الجزائر عامة والصحراء خاصة، غير أن بعض الجزائريين سجلوا أولادهم في هذه المدارس إلا أنه تم طردهم بسبب أنهم غير نظيفين. لم يكن التعليم الابتدائي منتشرا كثيرا في الصحراء الجزائرية بسبب نقص الفادح في عدد التلاميذ.[12] استمر هذا التعليم على هذا الوضع بسبب انعدام المؤسسات المدرسية في الصحراء والنقص الفادح في التأطير. في سنة 1901 كان التعليم الجزائريين ضعيفا جدا حيث أن الاستعمار بطبيعة أهدافه وسياسته العامة عدو للعم والتعلم لأنه يقوم على أساس الاستغلال.[13]

كذلك بالنسبة للتعليم الثانوي لم يكن هذا النوع من التعلم في منأى عن المشاكل التي أصابت التعليم الابتدائي، حيث صدر مرسوم 28-10-1870 من الحاكم العام دوجيون Degion ينص على إلغاء المعاهد العربية الفرنسية ذات المستوى الثانوي، فالتعليم الثانوي في الصحراء كان قليلا إن لم نقل منعدما.

ولم يقتصر التعليم الفرنسي على الشمال أو الغرب الجزائري، بل وصل إلى الجنوب أيضا.

نقدم بعض النماذج من الجنوب الشرقي للجزائر التي طبقت فيها السياسة التعليميّة الفرنسيّة:

1-3 منطقة ورقلة:

لقد حظيت منطقة ورقلة باهتمام السّلطة الاستعماريّة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، عقب زيارة لجنة مجلس الشيوخ الفرنسيّة للجزائر برئاسة "جول فيري"، حيث استمعت هذه اللّجنة إلى شكاوي الجزائريين وطالبوا بإلحاح كبير على تعليم أبنائهم لغتّهم العربيّة ودينهم الإسلامي وعليه عملت السّلطة الاستعمارية على تنفيذ توصيات اللّجنة، حيث رصدت أموال كبيرة لبناء مدارس ابتدائية في الجزائر وشهدت ورقلة سنة 1891م أوّل تجربة بناء مدرسة عمومية فيها، حاول عسكري فرنسي بناء مدرسة وسكن للمعلم في الجهة الجنوبيّة لقصبة ورقلة، غير أنّ البداية الفعليّة لتأسيس أوّل مدرسة رسميّة كان سنة 1898م والتي سجل فيها حوالي 50 تلميذاً[14] ومدرستين خاصتين.

12- عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص130.

13- رابح تركي، من الاستغلال للثروات المادية إلى استغلال الطاقات البشرية لسكان تلك البلاد، مرجع سابق، ص144.

14- دوني بيلي، معالم لتاريخ ورقلة 1872- 1992، تر: علي إيدر، ط2، 1995، ص 29.

أثناء الحرب العالمية الأولى شهد التعليم توقفا مؤقتا بسبب الحرب ولم يتم افتتاح أيّ قسم جديد، غير أنّه عقب نهاية الحرب يذكر السيّد "رواد Rouéde" في تقريره حول حالة التعليم في ورقلة، أنّ التعليم بصفة عامّة، كان متقدم بالرغم من العطل الطويلة، والحرارة الشديدة وحضور الطلبة إلى المدارس كان دائماً ومنتظما باستثناء مدرسة واحدة في قرية "تبسبست" بسبب لامبالاة أستاذ المدرسة[15].

وفي سنة 1900م، لجأ الفرنسيّون إلى إنشاء ما سمّوه بالمدارس الخاصّة يعمل على تأطيرها الآباء البيض، حيث تمّ إنشاء مدرسة خاصة بورقلة تضمنت 30 تلميذاً. وفي هذا الصدد يمكن القول أنّه بدل من أن تنشر السّلطة الاستعمارية التعليم بين الجزائريين كما طالب به الأهالي تركت الجزائريين لعبة بيد الآباء البيض لتمرير مشروعهم التنصيري (التبشيري)، وزيادة على ذلك أنّ الهدف من إنشاء هذه المدارس هو القضاء على اللّغة العربية وفرنسة الجزائريين وإبقائهم على جهلهم. وهذا ما صرّح له الفرنسيون: «إنّ الهدف كان محو التعصب الديني والكراهية عن طريق التعليم بالفرنسية والحضارة والتقدم وذلك لا يكون إلاّ بإحداث لغة مشتركة في الجيل الصاعد، وتقريبه من الفرنسيين بتبنّيه نفس الأفكار ونفس المصالح»[16].

سنة 1903م، أصبحت المدرسة الخاصة بالآباء البيض تعطي دروسا لعدد من الراشدين بمعدل خمس مرّات في الأسبوع، وكان عدد الطلبة يتراوح ما بين 40 إلى 50 تلميذاً.

شهد التعليم تحسنا في عهد الحاكم العام جونار 1904/1903 بالمنطقة الجنوبية خاصة الجنوب الشرقي منه حيث ازدادت عدد المدارس 29 مدرسة ابتدائية.

2-3 منطقة وادي سوف:

إنّ التعليم الفرنسي، جاء محاولة لاستيعاب أكبر عدد من أبناء المنطقة وإعدادهم لوظائف يترفّع عنها المعمر أكثر منها عملا تثقيفيا للأهالي.

تمّ فتح أوّل مدرسة بالوادي وأطلق عليها اسم مدرسة الأهالي[17] وكان فتحها مع بداية الموسم الدراسي 1886م[18]، لكن ما لوحظ على عدد المتمدرسين أنّه ظلّ يتزايد

15- دوني بيلي، مرجع سابق، ص 42.

16- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائري الثقافي، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص380.

17- علي غنايزية، من الإحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1882-1954، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص 186.

18- المرجع نفسه، ص 156.

موسما بعد آخر، ففي الموسم الأوّل بلغ العدد ثمانية متمدرسين جلّ آبائهم يشتغلون بالإدارة الفرنسيّة، ليزيد عددهم بعد أربعة مواسم دراسيّة، أي الموسم الدراسي (1889-1890م) إلى اثني عشر تلميذا، ووصل عدد المتمدرسين سنة 1900 إلى 278 تلميذ.

أمّا المدرسة الثانية التي أنشأها المستعمر فكانت بقرية "كوينين" بعد ثمانية أعوام من فتح مدرسة الأهالي بالوادي أي حوالي 1893م، غير أنّ وثائق المدرسة قد أتلفت. أما بقمار فقد أسست المدرسة الثالثة حوالي 1903م، حيث احتوت على ثلاثة أقسام، فكانت هذه المدرسة هي آخر مدرسة تنشئها الإدارة الاستعمارية حتى 1939، وهكذا استمرت محاولات التقرب من الأهالي لكنه ظل منحصرا في مرحلة التعليم الابتدائي.

كان ظهور المكتبات الفرنسيّة بوادي سوف منذ الاحتلال النهائي للمنطقة، أي منذ 1882م، وهذا لكون الكتاب كان ملازما للفرنسيين، فهو دليلهم في التعرّف على الواقع الحضاري للسكان.

كما كان لمكتبة ملحقة الوادي عدة كتب منها ما يتعلّق بتاريخ الجزائر وثورتها الشعبية والتاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي.

3-3 منطقة الأغواط:

احتلت فرنسا الأغواط في 04 ديسمبر 1852م، وقامت سلطة الاحتلال بملاحقة الشخصيات البارزة والعلماء والفقهاء وتصفية الكثير منهم، وعلى سبيل الحصر نذكر افتخار النقيب دي براي Dubrail في مذكراته بذهابه لاغتياب قاضي مدينة الأغواط.

أما في ثقافيا فلم يكن الجنوب خارج عن النصوص القانونية التي أصدرها النظام الاستعماري في مجال التربية والتعليم. مر التعليم بعدة مراحل للترويج بعلم التبشير المسيحي، وكان متحمسا لخدمة مصالح فرنسا الاستعمارية.

وفي سنة 1856م أنشئت أوّل مدرسة في مدينة الأغواط وكانت أوّل مدرسة في الجنوب. ثم تمّ إنشاء مدرسة خاصة بالأخوات البيض les sœurs blanches وعممت في ورقلة سنة 1873م وتوقرت سنة 1880م[19].

كما أسّس المبشّرون أنماطا عديدة للتعليم والتبشير في الأغواط شملت مبادئ الحساب والتاريخ والجغرافيا واللّغة العربيّة والغناء والموسيقى.

19- محمود علايلي، الحركة الإصلاحية في الأغواط، تر: بوعزة بوضرساية، وزارة الثقافة، 2008، ص ص 74-75.

كانت المدارس الفرنسية بالأغواط تابعة إدارياً لوزارة الحربية إلى غاية صدور قرار 04 أفريل 1909م حيث أصبحت الأغواط تابعة إلى قطاع الجنوب وكانت بمثابة مصيدة للعناصر المناهضة للاستعمار.

إنّ هذه المدارس كانت تخضع للتفتيش من قبل عسكريين قائد القطاع العسكري أو قائد المكتب العربي، كما أنّ بعض معلّميها كانوا عسكريين في كلّ من مدارس عين ماضي والحويطة.

كان دور الشيخ مبارك الميلي فعال، عمد على أن يحتل التعليم أفضل المناصب خاصّة وأنّ التعليم بمنطقة الأغواط كان ينحصر في المساجد والزوايا.

بعدما استقرّ الشيخ مبارك الميلي بالأغواط واستقام له الأمر دعا لتأسيس مدرسة لتعليم البنين والبنات.

فمشروع مبارك الميلي الأصلي هو إقامة مدرسة عربية للتعليم التي كان يأمل في إنشائها بقسنطينة إلا أنّه لم ينجح، لأنّ القانون الذي أصدرته فرنسا في 24 ديسمبر 1904م يمنع كلّ جزائري من فتح مدرسة بدون رخصة، يتعرض لعقوبة السجن والتغريم. ومنطقة الأغواط تختلف عن قسنطينة إذ تعتبر خاضعة للنظام العسكري والإدارة الفرنسية، وفتح مدرسة يتطلب إلى عناء كبير ووسائط[20]. فتعاون مع بعض المعلمين بميدان الثقافة والتعليم من الأغواطيين على تدشين مدرسة تعليمية خاصة بعد أن صدر الإذن الحكومي والرخصة بفتح المدرسة.[21]

4- أهداف السياسة التعليمية في الجنوب الشرقي:

إن تطبيق سياسة تعليمية فرنسية في الصحراء الجزائريّة وخاصة في المنطقة الشرقية،كان وراءه تحقيق أهداف تخدم توطيد الاستعمار، وقد تمثلت في ثلاثة أهداف رئيسيّة:

4-1 الخضوع الفكري والمعنوي:

أراد الاستعمار إخضاع الشعب الجزائري، لكن القادة السياسيين والعسكريين مقتنعون أنّ هذه السياسة، ليست الحل النهائي وإنّما الحل النهائي عندما يصبح الجزائريون يمدحون ويمجدون فرنسا، ولا يتم ذلك إلاّ عن طريق المدرسة. استهل

20- محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي، حياته العلمية ونضاله الوطني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2011، ص 121.

21- المصدر نفسه، ص122.

الإستعمار بالغزو الفكري، حيث كانت السياسة المعتمدة منذ أن وطأ أرض الجزائر، واستمر طوال فترة الإحتلال[22]. قامت الإدارة الإستعمارية بتدمير كل ما له علاقة بالتعليم العربي، وعملت على توقيف نشاط المساجد والزوايا. صرح البرلماني الفرنسي "توكفيل Tokvil" سنة 1988 " لقد استولينا في كل مكان على هذه الأموال، أموال المؤسسات الخيرية التي غرضها سد حاجات الإحسان والتعليم العام... وتركنا المدارس تندثر وبعثرنا الحلقات الدراسية، توقف رجال الدين والقانون، وهذا يعني أننا جعلنا المجتمع الجزائري أشد بؤسا وأكثر حملا، وأشد همجية بكثير مما كان عليه قبل أن يعرفنا.[23] ويقول لويس رين عن هدف السياسة التعليمية: «ومن الأهداف الحقيقيّة الّتي يسعى لها التعليم والمدرسة الفرنسيّة في الجزائر القضاء على منبع الثورات أي إضعاف مفعول الطرق الصوفية، ولا يتم ذلك إلاّ بتحويل ذهنية المجتمع المسلم الجزائري، عن طريق إنشاء المدارس في كل مكان كما يرى لويس رين في ختام دراسته عن الإخوان والمرابطين[24].

يقول "قيزو Guizot": «لا توجد فكرة قوية عبرت العالم ولا مبدأ حضاري كبير إلا وقد مرّ بفرنسا» أو القول بأنّ «كل رجل متحضر إلا وله وطنان، وطنه وفرنسا»[25].

2-4 نشر الثقافة الاستعمارية:

هدف الاستعمار في الجزائر نشر الثقافة الاستعمارية ليس لتثقيف الجزائريين ولكن من أجل إخضاعهم للفكر الاستعماري أي الخضوع والقبول بالاستعمار، ويقول جونار: «الهدف الأساسي للمدرسة هو نشر التعليم والأفكار الفرنسيّة والمساهمة في التقدم والحضارة لشعوب شمال إفريقيا، كما أن للمدرسة بعداً فكرياً وأخلاقياً»[26].

إن نشر الثقافة الاستعمارية تتطلب القضاء على كل الأفكار المعادية له، ولهذا السياسة التعليمية كانت تهدف إلى القضاء على الشخصية الوطنيّة للشعب الجزائري

22- عبد الله ركيبي، عروبة الفكر والثقافة أولا...، المؤسسة الوطنية للكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص6.

23- قويدر بشار، المساجد العثمانية في وهران ومعسكر، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 1، جامعة الجزائر، 1985، ص115.

24- عبد الحميد العموري، الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880- 1914م)، مرجع سابق، ص 122.

25- جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، مرجع سابق، ص 101.

26 -Jonnart (M.C) ; Exposé de la situation générale de l'Algérie, l'imprimeur de gouvernement générale, Alger, 1906, p 380.

بأبعادها المتعدّدة، وبالتالي القضاء على مقوّمات الشعب الجزائري[27]، يقول محمد الطاهر وعلي: " مما لاشك فيه أن التعليم التبشيري يستجيب للأهداف العامة لسياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، فهو يعمل على نشر اللغة الفرنسية وتلقين مبادئها للأطفال، وهذا رغم محدودية إنتشاره.[28]

3-4 تكوين النخب:

عملت الإدارة الاستعمارية منذ البداية على تكوين نخب مثقفة بالثقافة الفرنسية تخدم مصالحها، حيث تكفلت بتعليم بعض الأعيان، فغاية إدارة الاحتلال من وراء احتضانها لهذه المجموعة من الأطفال هي إعطاء صورة مشرّفة عن فرنسا[29]. حيث عمل الإستعمار الفرنسي على تكوين الشباب الجزائريين في المدارس الثانوية، وغيرها حتى المعاهد الفرنسية[30]. إن تكوين هؤلاء النخب، جعلهم على هامش مجتمعين مختلفين، أولهما فرنسي الذي لم يتقبلهم، وذلك لعدم توفرهم على الشروط اللازمة ليكونوا فرنسيين في دينهم، عاداتهم وأخلاقهم، وثانيهما جزائري الذي يعاني ويلات الإحتلال المختلفة.[31]

إنّ صورة النخبة في الفكر الاستعماري، جاءت في برنامج التعليم في سنة 1898م، الغاية من التعلم هو إعداد أبناء الأهالي، لأن يكونوا رجالا ذوي أخلاق مجيدة متفتحين متبصرين مستعدين للاقتراب منّا بواسطة استعمال لغتنا.

فتكوين النخب هو تجسيد التبعية الفكريّة للاستعمار والخضوع له «إنّ الهدف الذي يرمي إليه الاستعمار... هو تكوين نخبة مزيفة من المثقفين مقطوعة عن الجماهير الشعبيّة بحيث يشعر أولئك المثقفون بأنّهم غرباء بين ذويهم فتنقطع صلتهم بأبناء البلاد»[32].

27- مصطفى الزايد، التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر (1920- 1962م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص 104.

28- محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر 1830-1904، ص72.

29- جمال قنان، مرجع سابق، ص 13.

30- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.ص92.

31- محمد العربي الزبيري، أفكار جارحة في السياسة والثقافة والتاريخ، دار الحكمة، الجزائر، 2014، ص101.

32- محفوظ سماتي، الأمة الجزائرية نشأتها وتطوّرها، تر: محمد الصغير البناني وعبد العزيز بوشعيب، دار دحلب، الجزائر، 2007، ص 206.

الخاتمة: أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر وبعدما تمكّنت فرنسا من إخضاع القسم الجنوبي خاصة الجنوب الشرقي منها، عرف التّعليم العربيّ تراجعاً رهيباً لاسيما في فترة 1882/ 1914.

استطاع الاستعمار أن يسيطر على منطقة الصحراء فكرياً ولغويّاً بتطبيق سياسة تعليميّة وفقا لتشريعات وقوانين فرنسيّة خدمةً للمستعمر. تعتبر السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر نوع من الغزو الفكري الذي يعمل على إستمرار وتوسع الإحتلال، فرأت فرنسا أنه من الضروري الإعتماد على التعليم لضمان السيطرة على الجزائر عامة والصحراء خاصة. لقد استحوذ التعليم الفرنسي في الجزائر على كافة المتمدرسين، حيث إلتحق أطفال الجزائر بأعداد هائلة بالمدارس الفرنسية، وعمل الإستعمار على التشكيك في عروبية وإسلامية الأطفال. إن السياسة التعليمة الفرنسية نجحت بنسب متفاوتة في الصحراء الجزائرية منه في ناحية الجنوب الشرقي، حيث وقف سكان المقاطعة الجنوبية بالمرصاد لهذه السياسة واعتبروها امتداد للحروب الصليبية. كان الجنوب الجزائري عرضة لهذه السياسات، أرادت فرنسا من وراءها أن تنشر ما يسمى بسياسة التجهيل والتنصير وذلك بإرسال آباء بيض مختصين لهذه المهمة، وبالفعل كانت مناطق عديدة في الجنوب الكبير الجزائري عرضة لهذه الوضعية على غرار ورقلة، الأغواط، ووادي سوف كنماذج من الصّحراء الجزائريّة الّتي شهدت تعتيم كبير وتتبع باللّغة والفكر الاستعماري الفرنسي والقضاء على تعاليم الدين الإسلامي واحتلال عقول الجزائريين فكريّاً، حتى يتسنّى للاستعمار الغاشم السيطرة على كامل التّراب الوطنيّ وجعله تابعاً لفرنسا مباشرة في جميع المجالات، فالتعليم وسيلة وأداة استعملها الاستعمار لتوطيد وجوده في الجزائر وقد نجح إلى أبعد حدود بفضل نشاط رهبان فرنسيين الذين قاموا بعمل جبّار لتوجيه وتجهيل وتنصير الشّعب الجزائريّ. كانت فرنسا تهدف إلى القضاء على مقومات الشعب الجزائري العقائدية وبالتالي التهكم على شخصيته حتى يتسنى لها احتلال الجزائر كاملة.

المصادر والمراجع:

1- بشار قويدر، المساجد العثمانية في وهران ومعسكر، مجلة الدراسات التاريخية، العدد1، جامعة الجزائر، 1985.

2- بلحسين رحوي آسيا، وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي، مجلة الدراسات النفسية والتربوية، ع7، جامعة تيزي وزو.

3- بيلي دولي، معالم تاريخ ورقلة 1872-1992، تر: إدير، ط2، 1995.

4- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

5- حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، الجزائر، دار الأمة، 2000.

6- دوني بيلي، معالم لتاريخ ورقلة (1872- 1992)، تر: علي ايدير، ط2، 1995.
7- الزايد مصطفى، التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر (1962- 1980)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
8- الزبيري محمد العربي، أفكار جارحة في السياسة والثقافة والتاريخ، الجزائر، دار الحكمة، 2014.
9- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، بيروت-لبنان، دار الغرب الإسلامي، ج2، ط4، 1992.
10- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج3، ط1، 1998.
11- السماتي محفوظ، الأمة الجزائريّة نشأتها وتطوّرها، تر: محمد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، الجزائر، دار حلب، 2007.
12- صاري جيلالي، دور البيئة في الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2012.
13- عبد الله ركيبي، عروبة الفكر والثقافة أولا، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
14- علالي محمود، الحركة الإصلاحية في الأغواط (1916- 1988)، الجزائر، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب، 2008.
15- العموري عبد المجيد، الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880- 1914)، أطروحة دكتوراه في تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2017.
16- عميراوي احميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844- 1916)، عين مليلة- الجزائر، دار الهدى، 2009.
17- غنايزية (علي)، مجتمع وادي سوف، من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية (1882- 1954)، دار الهومة، الجزائر.
18- قنان (جمال)، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار (1830- 1944)، منشورات المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية، ثورة أوّل نوفمبر، الجزائر، مطبوعات هومة، 2007.
19- المدني (أحمد توفيق)،
20- المياسي (إبراهيم)، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1986- 1987.
21- الميلي (محمد)، الشيخ مبارك الميلي حياته العلمية ونضاله الوطني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2011.
22- Jonnart (M.C), Exposé de la situation générale de l'Algérie, Alger, l'imprimeur du gouvernement général, 1906.